

(قضايا دلالية) التطور الدلالي دراسة تحليلية

د. نعيمة خليفة عليوة - قسم اللغة العربية - كلية التربية الزاوية -
جامعة الزاوية

Semantic Issues: An Analytical Study of Semantic Evolution

Dr. NAIMA KHALEFA MOSTAFA ALIWA * Faculty member,
Department of Arabic Language, College of Education, University of
Zawia, Zawia, Libya

Abstract

This study addresses the phenomenon of semantic development in the Arabic language as one of the most prominent aspects of linguistic change, resulting from the interaction between language and social-cultural reality. The study highlights the ongoing changes in word meanings and how they are influenced by social and cultural factors, focusing on the manifestations of semantic specification, generalization, and semantic shift, in addition to phenomena such as semantic degeneration, elevation, and change in usage domain.

The research also examines the main factors influencing this development, such as: the desire for clarity, expressive needs, intellectual development, and historical and social influences. It draws upon the contributions of both classical and modern Arab linguists to demonstrate their awareness of semantic evolution and transformations.

Semantic development is a key aspect of linguistic evolution, and it manifests in the shifting meanings of words over time—a process that is continuous and evident in various Arabic dictionaries, where word meanings differ from one era to another depending on changing contexts and usage.

Keywords

Semantic development – Semantic specification – Semantic generalization – Semantics

Research Problem

How do social and cultural developments influence word meanings in the Arabic language, and what are the main manifestations of this semantic evolution?

Sections

1. The concept of semantic development and its characteristics:
2. Manifestations of semantic change:

- Semantic specification
- Semantic generalization
- Semantic shift
- Other phenomena: degeneration, elevation, and change in usage domain

3. Factors influencing semantic development:

- Social and cultural factors
- Desire for clarity
- Advancement of intellectual life

الملخص :

تتناول هذه الدراسة ظاهرة التطور الدلالي في اللغة العربية، باعتبارها أحد أبرز أوجه التغير اللغوي الناتج عن التفاعل بين اللغة والواقع الاجتماعي والثقافي. وتُبرز الدراسة التغيرات المستمرة في معاني الألفاظ، وكيفية تأثرها بالعوامل المجتمعية والثقافية، مع التركيز على مظاهر تخصيص المعاني وتعميمها، وانتقال الدلالة، إلى جانب ظواهر مثل الابتذال والرقى الدلالي، وتغيّر مجال الاستعمال.

كما تبحث الدراسة في أبرز العوامل المؤثرة في هذا التغير، مثل: الرغبة في التوضيح، والحاجة التعبيرية، والتطور العقلي، والعوامل التاريخية والاجتماعية. وتعتمد الدراسة على جهود اللغويين العرب القدامى والمعاصرين، لتبيّن مدى وعيهم بتطور الدلالات وتحولاتها.

فالتطور الدلالي يُعدّ ميداناً رئيساً من ميادين التطور اللغوي، ويتمثّل في تغيّر معاني الألفاظ بمرور الزمن، وهو تغير مستمر لا يتوقف، وتدل عليه شواهد كثيرة في معاجم اللغة العربية، إذ يتبدّل معنى الكلمة من عصر إلى آخر، بحسب السياقات والاستخدامات المتغيرة.

الكلمات المفتاحية : التطور الدلالي – تخصيص المعاني – تعميم المعاني – علم الدلالة الإشكالية:

كيف يؤثر التطور الاجتماعي والثقافي على دلالات الألفاظ في اللغة العربية؟ وما أبرز المظاهر التي تعبر عن هذا التطور الدلالي؟

تناول البحث المباحث التالية:

1. مفهوم التطور الدلالي وخواصه.
2. مظاهر تغير المعنى الدلالي:

- تخصيص الدلالة
- تعميم الدلالة
- انتقال الدلالة
- مظاهر أخرى: الابتذال، الرقي، وتغير مجال الاستعمال
- 3. عوامل التطور الدلالي:
- العوامل الاجتماعية والثقافية
- الرغبة في التوضيح
- تطور الحياة العقلية

توطئة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

حظيت اللغة العربية بوفرة المفردات؛ إذ ساعدها على ذلك قدمها، وتحملها لمظاهر التطور الإنساني والحضاري، واكتمال بنيتها اللغوية والفنية منذ عصر متقدم. ينبئ بذلك نزول القرآن الكريم بها، وضخامة الإرث الشعري الذي انتهى إلينا. وقد امتازت مفرداتها بالثراء، وتعدد الاستعمالات، ومما يميز اللغة العربية عن غيرها؛ أنّ العلماء يشبّهون اللغة الإنسانية بالكائن الحي، لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وهم من الأحياء، وهي لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن، مثلما يتطور الكائن الحي ويتغير، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره.

وللغة كذلك ظاهرة اجتماعية، لأنها تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانه منه، وهي تتطور بتطوره، فترتقي برقيه، وتنحط بانحطاطه⁽¹⁾.

بما أن اللغة ظاهرة اجتماعية، فإنها كالظواهر الاجتماعية الأخرى، عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها: (أصواتها وقواعدها ومنتها ودلالاتها)، ويخضع التطور في سيره لقوانين جبرية ثابتة واضحة المعالم، ولا يستطيع أحد أن يوقف عملها أو يغير نتائجها. وسرعة التغير ونتائجه تختلف من زمن لآخر ومن جانب لآخر من جوانب اللغة⁽²⁾. وذلك مما انتهت إليه الدراسات اللغوية الحديثة.

التطور الدلالي هو أحد جوانب التطور اللغوي، وميدانه الكلمات ومعانيها، ومعاني الكلمات لا تستقر على حال، بل هي في تغير مستمر لا يتوقف، ومطالعة أحد معاجم العربية خير برهان على هذا التطور، وأن معاني الكلمات متغيرة من عصر إلى عصر.

وللتطور الدلالي عوامل مختلفة تؤدي إليه، كما أن له مظاهر معينة يسلكها هذا التطور، وهو ما سنحاول تحليله في هذه الدراسة.
من أهم جوانب التطور اللغوي هو تغير المعنى، والمعنى هو علاقة متبادلة بين اللفظ والمدلول، ويقع التغير في المعنى كلما وجد تغير في هذه العلاقة⁽³⁾.
المباحث:

1. مفهوم التطور الدلالي وخصائصه:

يتغير موقفنا من الشيء إذا كان المعنى هو ما نملكه من أفكار وتصورات عن المشار إليه. التغييرات تحدث في اللغة دائماً لأنها نظام للتواصل بين الناس مرتبطة بأحوالهم وظروفهم الاجتماعية والثقافية والعقلية، وهذه الأحوال والظروف لا تسير على وتيرة واحدة، ومتى توفرت الأسباب حدث التغيير حسب طرق وأصناف معينة.
للتطور الدلالي عدة خواص تميز بها في اللغة العربية، من أهم هذه الخواص ما جاء في كتاب علم اللغة للوافي⁽⁴⁾:

1- التدرج في التطور الدلالي للفظ، فتغير المدلول لا يحدث بشكل مفاجئ، إنما يسير ببطء، تظل الكلمة لسنوات بمدلول معين ثم تدريجياً تنتقل إلى معنى آخر، من عوامل دينية، اجتماعية، علمية، أو تقنية ككلمة (الصلاة) والتي تعني قديماً الدعاء، وحديثاً تعني فريضة ذات أفعالاً وأقوالاً مخصوصة تؤدي في أوقات معينة، والمعاني القديمة تبقى في النصوص أو السياقات الأدبية والتاريخية فلا تختفي فجأة.

2- تلقائي الحدث فهو يحدث بطريق آلي لا دخل للإرادة الإنسانية فيه مثل بعض الكلمات في اللهجة الليبية لا علاقة بمدلولها مثل: (براد) وتعني إناء للتسخين ثم خصص للشاي يقال: (براد الشاي)، وكلمة (بياض) وتعني الفحم الأسود.

3- أنه جبري الظواهر؛ لخضوعه لقوانين صارمة لا يمكن لأحد وقفها أو تعويضها أو تغيير ما تؤدي إليه، مثال في اللهجة الليبية لفظة (هلبة) التي تعني الكثرة، فهذه اللفظة لا يمكن أحد تغيير معناها أو وقفها.

4- بين الدالتين الجديدة والقديمة علاقة تربطهما، قد يكون المجاز المرسل، أو الاستعارة، أو قد تكون العلاقة لا تتجاوز توسيع الدلالة أو تضيقها، مثل: لفظة السيارة التي كانت تعني القافلة واليوم تعني المركبة وذلك للعلاقة بين اللفظتين وهي السير، وكلمة (دابة) التي كانت تعني كل من يدب على الأرض، صارت حديثاً تعني الحيوان، إلا أن بينهما علاقة وهي دلالة المشي.

5- أن التطور الدلالي غالبًا ما يكون مقيدًا بالزمان والمكان، فمعظم ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص، مثال لفظة (باتي) وهي بمعنى (أبي)، فهذه اللفظة يختص بها سكان ليبيا في الشرق دون غربها، ولا يمكن العثور على تطور دلالي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة ووقت واحد.

6- يؤثر التغير الدلالي على جميع أفراد هذه البيئة التي حدث فيها التطور الدلالي، منها استعمال لفظة (باهي) في اللهجة الليبية الدالة على الاستحسان. رأينا أن خواص التطور الدلالي في اللغة العربية يعدّ مرآة تعكس مرونة هذه اللغة وقابليتها للتطور والتأقلم مع مستجدات العصر، وتقلبات الزمن، وهي ظاهرة طبيعية في اللغات الحية، وتدل على التفاعل العميق بين اللغة والمجتمع.

2- مظاهر تغير المعنى:

تحديد طرق تغير المعنى يعد ثمرة لجهود اللغويين المحدثين، حيث أفادت دراستهم عن التطور الدلالي حصر مظاهر رئيسة لهذا التطور وهي:

- تضيق المعنى (التخصيص).
- توسيع المعنى (التعميم).
- انتقال المعنى.
- مظاهر أخرى.

أولا - تخصيص الدلالة:

ويسمى أيضا تخصيص العام أو تضيق المعنى⁽⁵⁾، وهو أن تقصر دلالة اللفظ العام على بعض ما كانت تدل عليه، بحيث يصبح مدلول الكلمة مقصورة على أشياء أقل عددا مما كانت عليه الكلمة في الأصل.

ومن حالات التخصيص الدلالي إطلاق الاسم العام على طائفة خاصة تمثل نوعها خير تمثيل في نظر المتكلم، لأن الإنسان إذا وثق من أن محدثه قادرٌ على فهمه أعفى نفسه من استعمال اللفظ الدقيق المحدد واكتفى بالتقريب العام؛ فعندما يقال للفتاة في الريف: (أدخلِي البهائم) تفهم أن المقصود بها (البقر)، لأن البقر في نظرها هو البهائم، وكذلك لو تكلم الراعي أو الحوذي عن البهائم كان المقصود في الحالة الأولى الأغنام، وفي الثانية الخيل... مع أن لفظة (البهائم) عامة تدل على جميع الحيوانات⁽⁶⁾. وفي ذلك يقول (ج. فندريس): "الكلمات العامة لا تكاد تستخدم في الاستعمال بقيمتها العامة، اللهم إلا إذا كان ذلك عند الفلاسفة، فكل واحد من المتكلمين يطلقها على نوع معين من النشاط، وقد

تكلم علماء اللغة عن المعاني المختلفة لكلمة (عملية) فإن معناها يختلف تبعاً لما إذا كان الكلام في الجراحة، أم في المالية، أم في الفن الحربي، أم في شؤون الغابات، أم في الرياضة⁽⁷⁾.

الناس في تعاملهم اللغوي يميلون إلى الدلالات الخاصة لسهولة التعامل بها، ويعتمدون أحياناً إلى الألفاظ ذات الدلالة العامة ويستعملونها استعمالاً خاصة، كما في كلمة (العيال) التي أصبحت تدل على الزوجة، ولكنها أخذت تتجه حالياً لتخصص في الدلالة على الأولاد أنفسهم، مع أنها كانت تدل في الأصل على كل ما يعال في الأسرة⁽⁸⁾.

وفي لهجات الخطاب المعاصرة تخصصت دلالة كلمة (الطهارة) فأصبحت تعني (الختان)⁽⁹⁾. وتخصصت دلالة كلمة (الحريم) فبعد أن كانت تعني: "الذي حرم مسه فلا يدين منه"⁽¹⁰⁾. أصبحت تعني النساء خاصة، وكلمة (حرامي) هي في الأصل نسبة إلى الحرام، ثم تخصصت دلالتها واستعملت بمعنى (اللص) في القرن السابع الهجري⁽¹¹⁾.

ومن التخصيص كلمة (الصحابة) وهي تعني الصحبة مطلقاً، وقد خصصت بأصحاب رسول الله ﷺ، وكلمة (التوبة) معناها في اللغة الرجوع، وخصت بالرجوع عن الذنب⁽¹²⁾. وكلمة (الفكهة) كانت تعني (الثمار كلها) ثم خصص هذا المعنى وأصبحت تدل على أنواع معينة من الثمار⁽¹³⁾.

يفسر علم اللغة الحديث سبب التخصيص بأنه نتيجة إضافة بعض الملامح التمييزية للفظ، فكلما زادت الملامح لشيء ما، قل عدد أفرادها⁽¹⁴⁾.

وقد تنبه اللغويون العرب القدامى إلى ظاهرة تخصيص الدلالة في العربية وعرفوا علتها كذلك، وفي ذلك يقول أحمد بن فارس (ت 395 هـ) مشيراً إلى التطور الاجتماعي والثقافي الذي يؤدي إلى التطور اللغوي: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونساکهم وقرابينهم، فلما جاء الله. جل ثناؤه. بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة الفاظ عن مواضع إلى مواضع آخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت.. ومما جاء في الشرع: (الصلاة)، وأصله في لغتهم: الدعاء... وكذلك (الصيام)، أصله عندهم (الإمساك).. ثم زادت الشريعة النية، وحظرت الأكل والمباشرة، وغير ذلك من شرائع الصوم. وكذلك (الحج)، لم يكن عندهم فيه غير (القصد).. وكذلك (الزكاة) لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النماء، وزاد الشرع ما زاده فيها"⁽¹⁵⁾.

فهذه الألفاظ الإسلامية وغيرها كثير أصابها التطور الدلالي بفعل التطور الاجتماعي والثقافي الذي شهده المجتمع العربي عقب مجيء الإسلام، وقد كان اللغويون الأوائل واعين لهذا الجانب من جوانب التطور اللغوي عارفين علله ومظاهره.

وهذا السيوطي (ت 911 هـ) يقول في كتابه (الإتقان): " ما من عامٍ إِلَّا وَبُتِّحِلَ فِيهِ التَّخْصِصُ " (16)، ويردِّف الأمثلة على ذلك من القرآن الكريم، وعدّ ذلك مظهرًا من مظاهر التطور الدلالي أي: (تخصيص الدلالة)، ضمن باب في كتابه (المزهر) سماه: (معرفة العام والخاص) ذكر فيه اللفظ (العام المخصوص) وهو عنده اللفظ الذي: " وضع في الأصل عامة، ثم خص في الاستعمال ببعض أفراد... وقد ذكر ابن دريد أن (الحج) أصله: قصدك الشيء وتجريدك له، ثم خُصَّ بقصد البيت الحرام، فإن كان هذا التخصيص من اللغة صلح أن يكون مثالا فيه، وإن كان من الشرع لم يصلح؛ لأن الكلام فيما خصته اللغة لا الشرع.

ثم رأيت له مثالا في غاية الحسن، وهو لفظ (السبت)، فإنه في اللغة (الدهر)، ثم خص في الاستعمال لغة بأحد أيام الأسبوع، وهو فرد من أفراد الدهر. ثم رأيت في الجمهرة: رث كل شيء: خسيه، وأكثر ما يستعمل فيما يلبس أو يفترش، وهذا مثال صحيح" (17).

إذاً تخصيص الدلالة أو تضيق الدلالة يعني:

تغيير دلالة الكلمة من معنى عام كلي إلى معنى خاص، دون أن يؤثر ذلك في فصاحة الكلمة، فهناك ألفاظ تدل على العموم، فاللفظ يمكن أن يتحول إلى الخصوص أو إلى خصوص الخصوص، وإلى أبعد من ذلك فتضيق الكلمة كقولنا مثلا: كتاب، فكتاب بما أنه نكرة فهو يدل على كلي أي يشمل كل كتاب، وإذا قلنا كتاب نحو كان أخص من الأول فتحول من العموم إلى الخصوص، وإذا قلنا كتاب نحو اللغة العربية تحول إلى خصوص الخصوص أي تضيقت المفردة فتضيقت دلالتها. وهذا ما يحصل في كل اللغات إلا أنه في العربية له نصيب كبير؛ لسعة ألفاظ العربية، كما جاء في كلمة الحج عند العرب كانت تعني القصد، وتحولت بعد ذلك إلى خصوص الحج إلى بيت الله الحرام، ومن الألفاظ التي تحولت من العموم وأصبحت من ألفاظ الخصوص السبت فالسبت يعني الدهر، وتحولت هذه المفردة إلى خاص إذ تعني الآن أحد أيام الأسبوع. وهناك أمثلة كثيرة لألفاظ كثيرة يمكن الرجوع إلى معناها في معاجم اللغة العربية.

ثانياً - تعميم الدلالة أو (توسيع المعنى) (18):

التعميم يكون عند الانتقال من معنى خاص إلى معنى عام (19)، ومثلما يصيب التخصيص دلالة بعض الألفاظ فقط يصيب التعميم دلالة بعضها الآخر، فنجد أن معنى الكلمة يصبح ممكن التطبيق على مدى أوسع وأشمل (20)، ويصبح عدد ما تشير إليه الكلمة أكثر من السابق (21).

ينحصر تعميم الدلالة في إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله، وهذه حال الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذي يروي البلدة التي يعيشون فيها " (22).

وكثيراً ما نلاحظ الأطفال يطلقون اسم الشيء على ما يشبهه لأدنى ملابسة أو مماثلة، فقد يطلقون لفظ (الأب) على كل رجل، وكذلك الناس في حياتهم العادية يكتفون بأقل قدر ممكن من دقة الدلالات وتحديدها، ويكتفون بالقدر الذي يحقق هدفهم من الكلام والتخاطب، وهم لذلك قد ينتقلون بالدلالة الخاصة إلى الدلالة العامة التماساً لأيسر السبل في خطابهم (23).

ومن خلال أمثلة التعميم، لاحظنا أن الناس في خطابهم المعاصر يطلقون اسم (الورد) على كل زهر، والبحر على النهر والبحر (24). وكلمة (البأس) التي كان معناها الشدة في الحرب خاصة، عُممت دلالتها حتى أطلقت على كل شدة، وقد عقد ابن دريد (ت 321هـ) في كتابه (جمهرة اللغة) باباً لهذا الضرب من ضروب التطور الدلالي سماه (باب الاستعارات) وهذه بعض الأمثلة:

(النُّجعة): أصلها طلب الغيث، ثم كثر فصار كل طلب انتجاعه، و(الوغى): اختلاط الأصوات في الحرب، ثم كثر فصارت الحرب وغي، و(الغيث): المطر، ثم صار ما نبت بالغيث غيثاً، و(السماء): المعروفة، ثم كثر حتى سمي المطر سماء.

و(الراوية): البعير الذي يُسقى عليه، ثم صارت المزادة راوية، و(الدفن) للميت، ثم قيل: دفن سرّه: إذ كتّمه، و(العقيقة): الشعر الذي يخرج على الولد من بطن أمه، ثم صار ما يذبح عند حلق ذلك الشعر عقيقة، و(الظمأ): العطش وشهوة الماء، ثم كثر حتى قالوا: ظمئت إلى لقائك، و(المجد): امتلاء بطن الدابة من العلف، ثم قالوا: مجد فلان فهو ماجد: إذا امتلأ كرمًا، و(الأفن): قلة لبن الناقة، ثم قالوا: أن الرجل إذا كان ناقص العقل فهو مأفون، و(الصبر): الحبس، ثم قالوا: قل فلان صبرة: أي حبس حتى قتل، و(البأس): الحرب، ثم كثر حتى قيل: لا بأس عليك، أي لا خوف عليك، و(الرائد): طالب الكلاء، وهو الأصل، ثم صار كل طالب حاجة رائدة، و(الكدة): الأرض الغليظة،

لأنها تكد الماشي فيها، وكثر الكد في كلامهم، حتى قالوا: كد لسانه بالكلام، وقلبه بالفكر. (25)

ما نلاحظه من خلال أمثلة تعميم الدلالة هذه أن ثمة علاقة معينة بين المعنى القديم والمعنى الجديد للكلمة، أحيانا تكون هذه العلاقة: علاقة مشابهة أو علاقة مجاورة أو بعض علاقات المجاز المرسل.

ومن هذا التعميم الناتج عن التشبيه تحويل بعض الأعلام المشهورة إلى صفات فيقال: (حاتم) للكرم المضياف، و(عرقوب) لمن عرف بإخلاف الوعود... إلخ. ويرى بعض الباحثين أن تعميم الدلالات أقل شيوعا في اللغات من تخصيصها، وأقل أثرًا في تطور الدلالات وتغيرها (26).

ويفسر علم اللغة الحديث ظاهرة التعميم هذه بأنها ناتجة عن إسقاط بعض الملامح التمييزية للفظ (27)، والذي يبدو أن التشبيه والمجاز المرسل بعلاقاته المعروفة، سببان رئيسان كذلك في نشوء ظاهرة التعميم الدلالي، لأن العلاقة بين دلالتى اللفظ. قبل التعميم وبعده، غالبا ما تكون علاقة مشابهة، أو إحدى علاقات المجاز المرسل.

إذا تعميم الدلالة أو توسيع المعنى هي:

التي تعبر دلالة الكلمة من معنى خاص جزئي إلى معنى عام كلي وهذا النوع من الدلالة أقل من الأول، فكلمة (البأس) كانت خاصة بالحرب ثم أصبحت تطلق على كل شدة، وكلمة (عنتر) مثلا كانت تطلق على شخص واليوم يمكن إطلاقها على كل شجاع، وكلمة (رجل) كانت تطلق على المحارب الذي يسير على رجله، أي غير الفارس، واليوم تطلق على كل ذكر من بني الإنسان، وجاءت في القرآن بالمعنيين، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 27] ، وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا﴾ [النساء: 1] " ومن تعميم الدلالات يقول إبراهيم أنيس: "ما نلاحظه لدى الأطفال حين يطلقون اسم الشيء على كل ما يشبهه لأدنى ملابسة أو مماثلة وذلك لقصور محصولهم اللغوي وقلة تجاربهم مع الألفاظ فقد يطلق الطفل لفظ الأب على كل رجل يشبه أباه في زيه وقامته" (28).

ثالثاً - انتقال الدلالة:

هو أن ينتقل اللفظ من مجال استعماله المعروف فيه، إلى مجال آخر، ويشمل هذا المظهر نوعين من تطور الدلالة:

الأول: ما كان انتقال الدلالة فيه لعلاقة المشابهة، وهو ما يعرف بـ(الاستعارة).

انتقال مجال الدلالة لعلاقة المشابهة، وذلك يكون في الاستعارة، التي هي عبارة عن تشبيه حُذف منه أحد طرفيه وأداة التشبيه⁽²⁹⁾، وطرفا التشبيه هما المشبه والمشبّه به. إننا حين نتحدث عن (عين الإبرة) نكون قد استعملنا اللفظ الدال على عين الإنسان استعمالاً مجازياً، أما الذي سوغ لنا ذلك فهو شدة التشابه بين هذا العضو والثقب الذي ينفذ الخيط من خلاله⁽³⁰⁾.

ويتجلى هذا المظهر في كثير من الكلمات التي انتقلت من معناها إلى معنى آخر يشبهه، وأجزاء جسم الإنسان تعد مصدراً ثرياً للاستعارات، وكثيراً ما تنقل إلى مجالات أخرى العلاقة المشابهة، من مثل قولنا: أسنان المشط، وسن القلم، وعين الحقيقة، وعين الصواب، وعنق الزجاجة، ورأس الشارع، وصلب الموضوع، وقلب المعركة، وصدر الصحيفة، وظهر الأرض، ورجل الكرسي، ورجل الطاولة، وكبد الحقيقة، ويد الإبريق... إلخ.

ومن جسم الحيوان: ذيل الفستان، وذيل الصفحة، وجناح الطائرة.. إلخ. ومن النبات: شجرة النسب، فرع العائلة، جذور القضية، ثمرة البحث... إلخ. وذكر (أولمان) نوعاً آخرًا من الاستعارة يعتمد على التشابه في الشعور نحو جانبي الاستعارة، وفي نوع الإحساس بها، أكثر من اعتماده على التشابه في الصفات. ومن الأمثلة على ذلك قولهم: تحية عاطرة، واستقبال بارد، ولون دافئ، وصوت حلو، يقول: "فهنا يوجد الإحساس بأن هناك تشابهاً بين الدفء ولون معين من الألوان، وتشابهه بين المذاق الحلو والصفات الجميلة للصوت"⁽³¹⁾.

والاستعارة أسلوب مهم من أساليب العرب في الكلام، وقد حفل كلامهم شعراً ونثراً بالاستعارة وبغيرها من ألوان المجاز، وعلى وفق أساليبهم تلك نزل القرآن الكريم. وفي ذلك يقول ابن قتيبة (ت. 276هـ): "وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذها، ففيها: الاستعارة والتمثيل والقلب، والتقديم والتأخير... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن"⁽³²⁾.

ابن فارس يرى أن الاستعارة سنة فاشية من سنن العرب في كلامها، حيث يقول: "ومن سنن العرب: الاستعارة، وهو أن يضعوا الكلمة للشيء مستعارة من موضع آخر، فيقولون: (انشقت عصاهم) إذا تفرقوا، وذلك يكون للعصا ولا يكون للقوم، ويقولون: كشفت عن ساقها الحرب..."⁽³³⁾.

الثاني: ما كان انتقال الدلالة فيه لغير علاقة المشابهة، وهو ما يعرف (بالمجاز المرسل).

انتقال مجال الدلالة لغير علاقة المشابهة بين المدلولين، وهو المجاز المرسل)، وقد سمي هذا المجاز مرسلًا لإطلاقه من قيد المشابهة⁽³⁴⁾.

إن انتقال الدلالة من مجال إلى مجال آخر يكون عندما يتعادل المعنيان القديم والجديد للكلمة الواحدة، والفرق بين مظهر الانتقال ومظهري التعميم والتخصيص هو: أنَّ المعنى في هذين المظهرين أوسع أو أضيق من المعنى القديم، أما في مظهر الانتقال فالمعنيان القديم والجديد متساويان، وهذا يعني أنَّ كل أنواع المجاز التي يتساوى فيها الطرفان (المنقول منه والمنقول له) تندرج ضمن هذا النوع المسمى بنقل الدلالة، أو تغيير مجال الاستعمال.

إنَّ نقل المعنى كثيرًا ما يتم لغير داعٍ إبداعي أو أدبي، كالحاجة مثلاً، فقد ينقل المتكلمون اللفظ من مجاله المألوف إلى مجال آخر غير مألوف؛ "حين تعوزهم الحاجة في التعبير، وتتراحم المعاني في أذهانهم أو التجارب في حياتهم، ثم لا يسعفهم ما أُدخِرَ من ألفاظٍ، وما تعلموه من كلمات، فهنا قد يلجئون إلى تلك الذخيرة اللفظية المألوفة، مستعنيين بها على التعبير عن تجاربهم الجديدة لأدنى ملابسة أو مشابهة أو علاقة بين القديم والجديد"⁽³⁵⁾.

وغير الحاجة هناك عوامل عدة منها: التحول الاجتماعي والثقافي: بحيث المجتمع يمكن أن يرغب في استخدام الكلمات ومعانيها.

كثرة الاستعمال: الاستعمال بشكل متكرر لكلمة ما في سياق معين قد يؤدي إلى تغيير دلالتها.

أسباب نفسية: قد يوجد عامل نفسي في كيفية فهم كلمات الأشخاص ومعانيها. وأمثلة انتقال الدلالة لغير المشابهة كثيرة، فمن ذلك إطلاق اسم (الشتاء) على المطر؛ لأن الشتاء هو الفصل الذي ينزل فيه المطر، فالعلاقة بين المعنيين زمانية، ومن ذلك قول العرب: (أكلنا ملة) أي: خبز ملة، والملة هي الرماد الحار، وهو موضع الخبزة، فسموا الخبزة باسم موضعها⁽³⁶⁾، ومن ذلك إطلاق لفظه (اليد) على النعمة، لأن النعمة تصدر عنها⁽³⁷⁾. ومن انتقال الدلالة في لهجات الخطاب المعاصرة استعمال كلمة (الشجرة) بمعنى (النخلة) و (الطير) بمعنى (الذباب)، وكذلك إطلاق اسم أحد أعضاء الجسم على عضو آخر، مثل استخدام كلمة (صدر أو نحر) بدلاً من (ثدي)، ومنها تبادل الأسماء الدالة على عمليات الحواس، فكثيراً ما تستعمل الألفاظ الدالة على اللمس والسمع والإحساس والذوق بعضها مكان بعض، فبعض الأمم تسمى الأصم (أعمى

الأذنين)، ومما ييسر الانتقال من دلالة إلى أخرى الروابط التي يقيمها العقل بين عمليات الحواس المختلفة⁽³⁸⁾.

فمن الكلمات التي تغيرت دلالتها بطريق النقل كلمة: (السيارة) والتي تعني قديماً القافلة أو القوم يسيرون قال تعالى: ﴿وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبِ الْجَبِّ يَنْتَقِطُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: 10]، واليوم تعني تلك المركبة التي تسير بالراكب، وكلمة: (السفرة) التي كانت تعني الطعام الذي يصنع للمسافر، وهي في الاستعمال الحديث: المائدة وما عليها من الطعام، وقديماً كان (طول اليد) كناية عن السخاء والكرم، وأصبح اليوم وصفاً للسلوك⁽³⁹⁾. و (القلق) كان يدل على الحركة والاضطراب، وهو الآن مصطلح في علم النفس يدل على حالة نفسية معينة⁽⁴⁰⁾.

قسم علماء اللغة الأوائل المجاز المرسل بحسب علاقاته أقساماً كثيرة، فمنهم من جعله تسعة أقسام، ومنهم من جعله أربعة عشر قسم⁽⁴¹⁾، وذكر السيوطي (ت 911هـ) من أقسام هذا المجاز عشرين قسمًا⁽⁴²⁾، وأهم علاقات المجاز المرسل التي ذكرها المتقدمون، هي: السببية، والكلية والجزئية، والآلية، والحالية والمحلية والمجاورة والعموم والخصوص، واعتبار ما كان وما يكون⁽⁴³⁾. ومن الواضح أن هذه العلاقات بين المعاني القديمة والمعاني الجديدة، هي التي تؤدي إلى انتقال الدلالة من مجال إلى مجال آخر، وحصول ما يسمى بالتطور الدلالي، ولذلك فإن علم اللغة الحديث ينظر إلى المجاز المرسل على أنه مظهر من مظاهر التطور الدلالي.

فمن المجاز المرسل إيقاع المسبب موقع السبب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ (الأعراف، 26)، واللباس لم ينزل من السماء وإنما نزل سببه وهو المطر، ومنه إطلاق اسم الكل على الجزء، قال تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ (المائدة، 6) واليد حقيقة إلى المنكب، والمراد في الآية إلى المرفقين، ومنه إطلاق اسم الجزء على الكل، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص 88] أي: إلا ذاته.

وللمجاز أثر كبير في التسمية وإطلاق الألفاظ على مسمياتها، يقول ابن قتيبة: "فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً لها، أو مشاكلاً، فيقولون للنبات: نوع، لأنه يكون عن النوع عندهم... ويقولون للمطر: سماء، لأنه من السماء ينزل...⁽⁴⁴⁾، فهو يشير إلى المجاز المرسل وبعض علاقاته، ومنها: السببية، والمجاورة، والمحلية.

وفي لغة الخطاب المعاصرة، نقول: شربت من البن اليمني، والبن لا يشرب، إنما تشرب القهوة التي تصنع من البن، والعلاقة اعتبار ما كان، ونقول: فلان في القهوة،

فنطلق اسم القهوة على مكان شربها، والعلاقة مكانية، فالمجاز المرسل باب واسع من أبواب التطور الدلالي، وله أثر كبير في مجرى هذا التطور.

رابعا - بعض المظاهر الأخـــــرى:

أولا - الابتذال أو الانحطاط الدلالي للكلمة:

"وهو تغيير دلالي معاكس لراقي الدلالة بحيث يتغير معنى اللفظ من قوة وسمو وتأثير في الأسماع إلى معنى ضعيف ومبتذل" (45). و(الابتذال أو الانحطاط) الذي يصيب الألفاظ في كل لغة، لظروف سياسية أو اجتماعية أو عاطفية (46)، فكلمة (الحاجب) كانت تعني في الدولة الأندلسية: (رئيس الوزراء) ثم انحدرت في وقتنا الحاضر إلى معنى (البواب)، وكلمة (الوزير) العربية أصبحت تعني في الإسبانية (الشرطي) (47). إن أسباب تغير المعنى كثيرة ومتنوعة، قد تستعصى على الحصر، وقد ذكر بعض علماء الدلالة المعاصرين أكثر من واحد وثلاثين سبباً لتغير المعنى، ثم انتهى إلى القول: "إن عملية تغير المعنى مسألة صعبة ومعقدة، وبعضها فريد في نوعه، وعلى الرغم من ذلك يمكن استنباط عدة أسباب مهمة لتغير المعاني، وهذه الأسباب لغوية وتاريخية ونفسية، ومنها التأثير الأجنبي والحاجة إلى اسم جديد" (48).

قد يكون لكلمة ما معنى ذو أهمية كبيرة فتفقد هذه الكلمة أثرها في نفوس السامعين، ولذلك تنحط دلالتها ككلمة (الجارية) حيث كانت تطلق على الفتاة الصغيرة، فأصبحت تطلق على الأمة المملوكة، وكلمة الحاجب التي كانت تطلق على رئيس الوزراء وأصبحت فيما بعد تطلق على الحارس، ومن هذا أمثلة كثيرة كطول اليد مثلا كانت تطلق على الكريم، فأصبحت تطلق على السارق.

ثانيا- رقي الدلالة:

الراقي هو أن يكون للفظ دلالة أو معنى منحط ثم تنتقل دلالاته المنحطة أو المتواضعة إلى معنى أكثر نبلاً أو شرفاً أو أهمية من معناها الأصلي، ككلمة رسول التي كانت تطلق على كل من يرسل ثم شرف معنى هذا اللفظ فأصبحت تدل على من أرسله الله تعالى. أو " كلمة السفرة تعني في الأساليب القديمة طعام المسافرين وهي الآن على السنة تجار الأثاث ذات شأن " (49) والسفرة في اللهجة الليبية تعني إناء مسطح أو يوضع فيه أواني الطعام.

ثالثا- المبالغة:

المبالغة عذها أولمان "مسئولة عن الشعارات المذهبية والاصطلاحات الخادعة التي تستغلها أجهزة الدعاية أسوأ استغلال، حتى إنها لا تلبث أن تؤدي إلى عكس المقصود

منها⁽⁵⁰⁾، وذلك كما في نحو: "سعيد بشكل مخيف"، "ورائع بكل بساطة"، وعدّها من المجاز بيد أنها من وجهة النظر العربية أوسع من دائرة المجاز⁽⁵¹⁾.
رابعاً- تغيير مجال الاستعمال:

تغيير مجال الاستعمال هو: ما يطلق عليه أيضاً بالمجاز، أو الانتقال المجازي: فهو (النقل من مجال لآخر سواء عن عمد أو غير عمد)، ويختلف عن المجاز البلاغي عند البلاغيين، فهو كل ما يتعلق بدلالة اللفظ وإن كان يتفق أحياناً في جانب ما؛ ولذا أطلق عليه هذا الانتقال المجازي، وقد ميز بعضهم بين الأنواع الثلاثة الآتية للمجاز⁽⁵²⁾.
أ- المجاز الحي: الذي يطل في عتبة الوعي ويثير الغرابة والدهشة عند السامع.
ب- المجاز الميت: وهو النوع الذي يفقد مجازيته ويكسب الحقيقة من الألفة وكثرة التردد.

ج- المجاز النائم: ويحتل مكانة وسط بين النوعين السابقين.

2. عوامل التطور الدلالي :

العوامل الاجتماعية والثقافية المؤثرة في تغيير المعاني، الأسباب في تطور الدلالة يعزوها الدكتور إبراهيم أنيس إلى ما يأتي:

1- توضيح الدلالة:

حيث تنتقل الدلالة المجردة إلى مجال الدلالات المحسوسة أو الملموسة "وهذا ما يلجأ إليه الأدباء والموهوبون من أصحاب المهارة في الكلام كالشعراء، والأدباء وحاجة الأديب إلى توضيح الدلالة أو تقوية أثرها في ذهن هي التي تحمله إلى الابتداع"⁽⁵³⁾. ومن الأمثلة المذكورة في دلالة الألفاظ قول الشاعر الذي أراد أن يصف لنا كيف قضى على (ضغن) أقربائه وحسدهم له فقال: ⁽⁵⁴⁾

وذي رَحِمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ بحلمي عنه وهو ليس له حِلْمٌ

فقد وصف الضغن بصورة بشعة، لحيوان له أظفار ومخالب مخيفة، فهذه العملية التي نراها هي عاطفية وغير مقصودة، ولا تحتاج إلى تفكير فلسفي أو عقلي فقد استعان على تجلية (الضغن) بصورة بشعة لحيوان له أظفار ومخالب مخيفة، ومن هذه أيضاً الأمثلة (كثرة الرماد) تدل على الكرم وهناك أمثلة كثيرة، في مجال الابتداع الأدبي الذي يؤلفه أصحاب مهارة الكلام.

2- رقي الحياة العقلية:

الدلالات كما يذكر الباحثون بدأت بالمحسوسات ثم تطورت إلى الدلالات المجردة، وهذا بفعل التطور العقلي وانتقال الدلالة من المجال المحسوس إلى المجرد، ويتم عادة بصورة تدريجية، وتظل الدالتان سائدتين جنباً إلى جنب لمدة ليست بقصيرة، خلاله قد تستعمل الدلالة المحسوسة فلا تثير غرابة أو دهشة، وتستعمل في الوقت نفسه الدلالة المجردة فلا يدهش أحد؛ لأنها أخذت تألفها الأسماع.

الخاتمة:

عرفنا من خلال هذه الدراسة الموجزة، أن اللغة مرآة الحياة، والترجمان المعبر عما فيها من وجوه النشاط الإنساني؛ لذا فإن أي تطور يصيب النشاط الإنساني يترك بصمته على اللغة، وأن اللغات الإنسانية واللغة العربية إحداها في حالة تطور مستمر وبخاصة في مجال الدلالة، وقد وقفنا عند بعض القضايا الدلالية التي تؤدي إلى التطور الدلالي كالحاجة، والأسباب اللغوية، والتاريخية والاجتماعية.

أهمها المظاهر التي يتجلى فيها التطور الدلالي، من: تخصيص الدلالة وتعميمها وانتقالها من مجال إلى مجال آخر، بعلاقة المشابهة كما في الاستعارة، أو بغير علاقة عدم المشابهة كما في المجاز المرسل.

وقد لاحظنا من خلال هذا البحث المتواضع أن علماء العربية المتقدمين قد حددوا عوامل التطور الدلالي وعرفوا مظاهره المختلفة، وذكروا كثيرة من المفردات التي تطورت دلالاتها مما يدل على إلمامهم وإحاطتهم بهذا العلم. ولا تنكر جهود علماء العربية المعاصرين الذين قدوا لهذا العلم من خلال اطلاعهم على الدراسات العالمية في هذا المجال، والذين أغنوا مباحثه بالأمثلة الكثيرة من كلام العرب في القديم والحديث.

أهم ما توصل إليه البحث:

- اللغة كائن حي يتطور مع المجتمع.
- دلالات الألفاظ في تغير دائم، بسبب الحاجة والاستخدام.
- التنوع في الأساليب البلاغية (كالاستعارة والمجاز) ساهم في تطور الدلالة.
- التفاعل بين اللغة والثقافة يؤدي إلى تحولات دلالية تعكس رقي أو انحطاط الألفاظ.

التوصيات البحثية :

1. توسيع البحث حول تأثير العوامل الثقافية على اللغة.
2. تعزيز الوعي بأهمية اللغة في التعبير عن الهوية الثقافية.

3. تشجيع الباحثين في مجالات علم الدلالة لتطوير المناهج التعليمية.

الهوامش:

- (1) ينظر: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه - د. رمضان عبد التواب - القاهرة 1983م. 5.
- (2) ينظر: دور الكلمة في اللغة - ستيفن أولمان - ترجمة د. كمال بشر - القاهرة 1975م. 156.
- (3) وينظر: علم اللغة العام، دي سوسور، 93.
- (4) ينظر: علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1، 314-317.
- (5) ينظر: دور الكلمة في اللغة، 162، وعلم الدلالة، أحمد مختار، دار العروبة، الكويت ط1، 1982م، 245.
- (6) ينظر: اللغة جوزيف فندريس، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1950م، 257.
- (7) اللغة - 257 - 258.
- (8) ينظر: علم الدلالة والمعجم العربي، د. عبد القادر أبو شريفة وآخرون 65- 66، دلالة الألفاظ 153 - 154.
- (9) ينظر: دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ط 3 - 1976م، 154.
- (10) لسان العرب - ابن منظور - دار صادر - بيروت 1968م (مادة: حرم).
- (11) ينظر: دلالة الألفاظ: 125.
- (12) ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية - د. محمد المبارك - دار الفكر - بيروت 1972م: 219.
- (13) ينظر: علم اللغة - مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السمران: 284
- (14) علم الدلالة: 246.
- (15) الصاحبى في فقه اللغة. أحمد بن فارس - القاهرة 1977م: 78 - 86.
- (16) الإتيان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب
- ط 1974م، ج3، 49.
- (17) المزهري في علوم اللغة وأنواعها - السيوطي - القاهرة 1958م 427/1.
- (18) ينظر: دور الكلمة في اللغة 162.
- (19) ينظر: علم الدلالة 243. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السمران القاهرة 1962م 284.
- (20) ينظر: دلالة الألفاظ 154، دور الكلمة في اللغة 162.
- (21) ينظر: علم الدلالة 243
- (22) اللغة 258

- (23) ينظر: دلالة الألفاظ، 154 - 155.
- (24) ينظر: التطور اللغوي 117، ودلالة الألفاظ 155.
- (25) ينذر: جمهرة اللغة - لابن دريد، باب الاستعارات ج3، ص 1255.
- (26) ينظر: دلالة الألفاظ: 154.
- (27) ينظر: علم الدلالة: 245.
- (28) دلالة الألفاظ: 159.
- (29) ينظر: أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمد رشيد رضا - ط 4 - دار المنار 30.
- (30) دور الكلمة في اللغة 168.
- (31) دور الكلمة في اللغة، 170.
- (32) تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - القاهرة ط1 - 1966م (20 - 21).
- (33) الصاحبى 334، وينظر: المزهري ج1، 133.
- (34) ينظر: المجاز في البلاغة العربية - د. مهدي السامرائي - دار الدعوة - حماة ط1 - 1974م: 114.
- (35) دلالة الألفاظ: 130.
- (36) ينظر: لحن العوام - أبو بكر الزبيدي - تحقيق د. رمضان عبد التواب - القاهرة 1964م 174.
- (37) ينظر: أسرار البلاغة 343.
- (38) ينظر: التطور اللغوي 118.
- (39) ينظر: دلالة الألفاظ 126، التطور اللغوي 119.
- (40) ينظر: علم الدلالة والمعجم العربي - د. عبد القادر أبو شريفة وآخرون 70.
- (41) ينظر: المجاز في البلاغة العربية 116.
- (42) ينظر: الإتيان في علوم القرآن - السيوطي - المكتبة العصرية - بيروت 1988م 111/3 - 116.
- (43) ينظر: المجاز في البلاغة العربية 117 - 119.
- (44) تأويل مشكل القرآن: 135.
- (45) طريقة التغيير الدلالي للدكتور سالم الخماش: 9.
- (46) ينظر: دور الكلمة في اللغة: 180.
- (47) ينظر: دلالة الألفاظ، أنيس 157، التطور اللغوي، رمضان: 114.
- (48) ينظر: الترادف في اللغة، حاكم مالك لعبيبي. بغداد 1980م: 15.
- (49) دلالة الألفاظ: 160.
- (50) دور الكلمة: 185.
- (51) المصدر نفسه والصفحة.
- (52) ينظر: علم الدلالة: 241.
- (53) ينظر: دلالة الألفاظ للدكتور إبراهيم أنيس: 155.
- (54) ينظر: ديوان المعاني، أبو هلال الحسن العسكري، دار الجيل - بيروت، ج1، 153.